عاشق تحت المجهر

ربيع أيوب

عاشق تحت المجهر

المؤلف : ربيع أيوب

التنسيق الداخلي - تصميم الغلاف : مجموعة وصلة

للتواصل / ٠١٠١٦٦٦٨٦٠٥

www.facebook.com/wasla.4u

إصدار : سبتمبر ٢٠١٧



إهداء

إلى كل من دعمني و لو بشطر كلمة

إلى أناس في حياتي عجزت عن مكافأتهم فتركتها لله

إلى جندية أصرّت أن تكون مجهولة

****

جالس في الشرفة أحاول أن أفيق من دوامة الألم التي ارتميت في جوفها، أظلمت السماء من حولي و لم يكن هناك ما ينبئ بأنها ستمطر!

قطرات المطر تصفع الزجاج بعنف، أصوات مرعبة، تزأر السماء بشكل مخيف!

كأنها فقدت شيئاً أو أنها جاءت للانتقام!

هل هذا شفقة على حالي؟ أم أنها تشاركني البكاء؟

الناس يهرولون هرباً من المطر، أما أنا قررت أن أسير تحت تلك الأمطار علها تخفي دموعي، لم أكلف نفسي أن أوقظ المعطف اليتيم منذ البيات الصيفي.

غادرت المنزل، حقيقة لم أكن أعلم إلى أين أنا ذاهب!

استندت إلى سور يطل على النيل - أراقب الناس، امرأة عجوز تحت مظلتها تنتظر إحدى سيارات الأجرة، شاب يهرول من المطر، فتيات يسرعن الخطى للعبور للجانب الآخر من الطريق، كل منهم منشغل بحاله و لا أحد يشعر بي و لا أحد يهتم لأمري.

هممت أن أقفز في النيل محاولة للانتحار، بينما أنا كذلك اخترق أذني ذلك الصوت الذي طالما أراح الكثير و لكني لم أكن منهم، هل حان الوقت أم ماذا أنتظر؟!

تتبعت ذلك الصوت حتى ألقاني عند الباب الذي يتوافد الناس من خلاله ليجيبوا دعوة رب هذا البيت، دخلت المسجد آملاً في أن أجد الراحة، توضأت والدموع تنهال من عيني و اصطف المصلون لصلاة العشاء.

أنا الذي قرأت القرءان مراراً و نزل على مسامعي كثيراً إلا أن تلك الآيات التى سمعتها من الإمام كأنما أول مرة تمر عليّ، كأنها لم تنزل مسبقاً " وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًا لِّلَّهِ "، لطالما أنهكني الحب لكنه لم يكن لله، ظللت في ركوعي تتساقط أدمعي لتحكي كل قطرة منها قصة قد آلمت قلبي، همست في أذن الأرض و أعلم يقيناً أن لتلك الدعوات فتحت أبواب السماء، إن ربي غفور ودود.

انتهت الصلاة و غادر الناس، لمحت نظرات عامل المسجد ترمقني بسهامها راغبة في رحيلي.

أنا الذي أنهكه الحب و استنفذ قواه و كيف لي ألا أحب مخطوبتي؟! أقصد من كانت مخطوبتي.

كيف لي أن أنساها ولا يكاد شهيقي يتم إلا و أشعر بدفء زفيرها؟!

ارتبطت بكل تفصيلة من تفاصيل حياتي، انهار أمامها قلبي كقلعة هد المنجنيق أسوارها.

هذا جزاء من يعشق.. من يعشق مثلها.

****

و أشرقت الأرض بنور ربها.

يوم جديد ألهث فيه مجدداً لأهرب من جراح تلاحقني لحاق السبع المتضور جوعاً لفريسته و لا تمهلني لحظة لأتنفس عبير الحياة مجددا بلا ألم بلا ذكرى مؤلمة .. بلا عشق!

بينما أنا مستلق على السرير غارق في بحار تلك الآلام التي لا أكاد أملك أي أمل في النجاة من الغرق فيها، أضاء هاتفي لينتشلني منها عساه يكون طوق النجاة، إنه اتصال من رقم مجهول، ها .. عساها هي التي تتصل بي؟

انتابني شعور أنها هي، كم تمنيت أن تكون هي

_ السلام عليكم.

_ وعليكم السلام.

إنه صوت ذكوري،

تهدمت آمالي و صاحبتها تنهيدة حارة بحرارة خيبة الأمل ثم أردفت: من معي ؟

_ معك أحمد أشرف يا يوسف، كيف حالك؟

_ الحمد لله بخير.

_ صوتك لا يعجبني ما بك؟

_ لا شيء كيف حالك أنت؟

_ أنا بخير، أخبرني أين تعمل الآن؟

_ لست مستقراً في الحقيقة.

_ جيد.

_ جيد! أقول لك لست مستقراً و تقول جيد؟!

_ نعم، اسمع أنا حاليا أعمل بدار نشر لرجل أعمال مهتم بالوجوه الشابة الموهوبة وقد رشحتك له و قد عرضت عليه نسخي من بعض أعمالك الروائية التي كنت تتقدمها بها في مسابقات الكلية لأريه إياها و قد أعجبته كثيراً و طلب مني الاتصال بك لتحديد موعد لمقابلته، ماذا قلت؟

_ أنا.. أنا لم أعد أكتب.

-نعم كيف لي أن أكتب مجددا ومن كنت أستوحي منها كتاباتي قد ضرب بيننا بسور ظاهره ما يسمى بالقسمة و النصيب و باطنه من قبلي الآلام و النحيب؟! كيف لي أن أكتب مجددا و من كانت ملهمتي رحلت-

عاد بثقة كبيرة لا أعلم من أين جاء بها وحالي قد وأدها للأبد:

_ لماذا لا تكتب مجدداً فهناك مجد أدبي ينتظرك يا أديب؟

_ أديب؟!

-أي مجد ينتظرني بدونها؟! أي نهار يكون بدون الشمس؟!-

ثم أردف: نعم أديب، سأنتظر منك ردك بالموافقة لأخبرك بالتفاصيل وداعا.

انتهت المكالمة و لم تنته معاناتي!

ترددت كثيراً في بدء الأمر لكني وجدت أن تلك الفرصة لابد أن أستغلها لأثبت للجميع أني لست فاشلاً، فلن يلتفت إليك أحد حتى تأتي بصنيع عجز عن مثله.

أخذت القرار بالموافقة، فليس هناك أفضل من الأوراق لتبوح لها بأسرارك، فعندما يحضر القلم تنصت الأوراق في حضرته طوعا أو كرها.

قمت بالاتصال بأحمد لأخبره بقراري و أملاني العنوان والموعد.

عدت إلى مكتبي و قمت بفتح الدرج لأخرج تلك الكتابات.. كتاباتي التي غزا الغبار كل ملامحها لا تكاد تخلو من وصف أصف فيها تلك التي من جراء عشقها أعاني الويلات، أصبحت تائها كقارب انقطع حبل مرساته في بحر الحياة الذي لا يتخلل موجاته شيء يمت للرأفة بصلة.

****

الساعة التاسعة صباحاً _ يوم المقابلة

سكون نسبي غير عادي في الشارع لم أعتد ذلك مطلقا فشعرت بأن هناك شيئاً ما قد حدث؟!

أمي تنادي علي تُذكّرني بالموعد، لا أتذكر أني أخبرتها فكيف عرفت؟!

_ هلا تجهزت لتقابل صديقك أحمد؟

أسعفتني ذاكرتي بأني كتبت العنوان والميعاد على إحدى صفحات الجريدة التي كانت تقرؤها لكن من حسن الحظ أنهما قد حفرا في ذاكرتي.

ارتديت البدلة السوداء.. تلك البدلة التى لم أنقب عنها منذ أن افترقت أنا و...

أنا و من كانت مخطوبتى، لم أفكر في حلق لحيتي فطالما كانت أمي تخبرني بأن مظهري بها أفضل بكثير تماما كما كانت مخطوبتي تخبرني بذلك.

نزلت للشارع ذاهباً لمكان المقابلة، سألت أحد المارة عن سبب هذا السكون المريب فأخبرني بأن ثمة قنبلة هناك في بداية الشارع و جاري التعامل معها بعدما أغلقوا الشارع من أوله لآخره، قلقت أن أترك والدتي فقررت أن أصطحبها لخالتي حتى عودتي، الشيء الذي جعلني أتأخر عن الموعد المحدد.

دخلت تلك الدار،

نظرت إلى هندامي لأتأكد من ضبطه، رحب بي أحمد ولامني بعض الشيء على تأخيرى تماما كما كانت تفعل مخطوبتي عندما كنت أتأخر عليها، كنت أستعذب منها أي عتاب لي أو لوم ما دام خارجا من بين شفتيها، تلك الشفتين التي لطالما أسكرتني بكلمات عطّلت عقلي عن التفكير في غيرها و أعمتني عمن دونها و أصمتني عن أي كلام من سواها.

شرحت له الأمر و أدخلني لصاحب الدار وغادر.

رجل احتل فروة رأسه لمعان الشعر الأبيض، تطل عيناه من وراء نظارة طبية، ليس بالطويل و لا بالقصير، يبدو بسيطاً بعض الشيء، استقبلني بابتسامة عريضة كمن يعرفني منذ زمن!

دخلت حجرة مكتبه من باب عريض، تصميم مكتبه ينمّ عن مدى ولع هذا الرجل بالكتب، يتوسط مكتبه مكتبة عظيمة تتزين لي كتبها بـ هيت لك، تصافحنا بحرارة كما لو كنا أصدقاء قدامى!

_ أهلا يوسف.

_ أهلا بحضرتك أستاذ.

_ حسن .. حسن الباز، أنا فعلا معجب جدا بك، أحمد كان موفقاً جداً في ترشيحك أنت فعلا موهبة فذة.

_ شكرا لك.

تحاورنا حول طبيعة النشر و المقابل المادى و غير ذلك من الاتفاقات في مثل تلك المناسبات.

خرجت من المكتب و رأيت أحمد يتوجه نحوي و تعلو وجهه ابتسامة، وخزته في كتفه و بادرته الحديث: لماذا تركتني وغادرت؟

_ يا رجل.. أنت تعلم أن مثل هذه الاتفاقات خاصة، أتمنى أن تكون سعيدا.

_ نعم، شكرا لك.

_ لا تشكرني فأنت تستحق، لكن عندما تشتهر و تشتري سيارة فارهة وتمر بها علي إياك أن تنساني فأشير لك يوسف يوسف ألا تذكرني و أنت متجاهلني.

أضحكني أحمد، لطالما اشتاقت ملامحي لتستقبل ضحكة منذ زمن!

خرجت من المكان بروح معنوية عالية.

ليس هناك ضيف أثقل من الخوف، إذا حل منع باقي المشاعر من الحضور، و لا أخف من السرور يستثقل نفسه إذا تنسمت مشاعر أخرى يرحل على عجل!

أبى الجرح إلا أن يعاود آلامه معي.. مشهد أشعل شرارة فى مخزن الذكريات.. رأيتها.. بل شبيهتها.

و كأن نساء العالم توحدن في رسم ملامح محبوبتي على وجوههن بعد فراقها، كم تمنيت أن تكون هى.

وقعت في العشق و انضممت إلى ناديه الذي طالما سخرت من رواده.

نعم هي التي لأجلها نظمت القصائد و كتبت الروايات وحصدت بها كل الجوائز التى تقدمت لها، لم تكن مجرد فتاة عشقتها بل كانت أكثر من مجرد عشيقة.. نعم وقعت في تلك شباك حبها وعشقها، حقيقة أنا من أوقعت نفسي بتلك الشباك التي لا تعرف الرحمة و منيت نفسي بلذة العشق، كأنه نهر ابُتليت به و أُمرت ألا أطعمه إلا غرفة بيدي فما إن لامست مياهه شفتي حتى أغرتني بالتهام المزيد فكنت غريقه، فلم أنج منه!

كان ينتظرني العشق ليلتهمني فاستشرف لي في صورتها ولم تكن معاذ لله رفيقتي، تمنيت فعلا ألّو تفجرت في تلك القنبلة التى عثروا عليها في شارعنا لأتخلص من ألغام ذلك الهجر، فلا يمر يوم إلا و تفجر أحدهم بداخلي فيدمى له قلبي.

ينظرون إلي كذبابة غارقة في العسل، يحسدونني على طيب العسل و لا يدرون حقيقة غرقي! لم يكن عشقي لها عشقاً للجسد كالظمأ يذهب ببعض الماء، بل كان مستمراً لا ينطفئ نوره بداخلي ولو للحظة.

بدأت العمل و في فترة الستة أشهر الأولى ذاع صيتي و انتشرت أعمالي على عكس ما كنت أتوقع و أصبح لي جمهورا عبر صفحات التواصل الاجتماعي، لكن كل هذا لا يهمني، لاأريد معجبين، تكفيني واحدة.. تكفيني هي.

كل أخبارها قد انقطعت عني، غيّرت رقم هاتفها وعطّلت صفحتها الشخصية منذ أن افترقنا كأن شيئا لم يكن!

كأني كنت أحلم كل تلك الفترة و استيقظت لأواجه الحقيقة.. ظللت أغمض عيني بقوة و أفتحهما بشدة لعلي أصحو من هذا الكابوس المريع و يا ليتني لم أستيقظ منه، ابتلعت العديد من الأقراص المنومة فوددت فعلاً لو كان حلما أن أبقى تحت رحمة النوم خشية قسوة الواقع، منيت نفسي بنوم أصحاب الكهف ولكن هيهات! إلا أني لم أرد البعث مجدداً في حياة تجردت من ملامح ليلى.

فكّرت جدياً أن أتقدم لخطبتها مجدداً خاصة بعد ما أثبت للجميع أنى نجحت في شيء في حياتي، لكني تأخرت كثيراً، تذللت لغير واحدة من أصدقائها لكن لم تعطني أي منهن معلومة واحدة عنها، حتى قاربت اليأس في الوصول إليها، إلا واحدة تعاطفت معي و يا ليتها ما تعاطفت.

كانت تلك الفتاة تحبني لكن عشقي لمحبوبتي أعماني عن بنات الكون بأسره، لم أكن لأقلّب صفحات ماضي تجاهلي لها بل كنت غريقاً، فالغريق الذى يمسك بك لا يريد إغراقك أو أن ينعم بموته معك فقط يحاول ألا يهوى إلى قاع تستحق النجاة منه التضحية بأي شيء في سبيل ذلك.

لم ألمس في كلامها إلا بالتشفي.

قالت لي: ليلى تمت خطبتها وستتزوج بعد أيام.

أفلست قواميس الدنيا لتمدني بكلمة واحدة أصف بها شعوري حينها لتعطل حواسي عن العمل، كلما تذكرت استحالة الرجوع إليها أهلكني ذلك رعبا و كان أشد ما يرعبني هو عجزي عن الرجوع بالزمن فلا سبيل لذلك فعلي أن أُكمل حياتى بدونها إلى أن أموت.. هلم يا أيها الموت.. عجّل و لتكن خطواتك رشيقة قدر الإمكان فأنا أنتظر الذبح كالشياه كما ينتظرك أنت في الآخرة، فالفراق الحتمي قد اكتسى ثوب الحقيقة.. كانت تلك الفترة من أصعب فترات حياتي إن لم تكن هي الأصعب بعد وفاة أبي، تبخرت أحلامي معها بلا رجعة، قد تتبخر أحلامنا لتتكثف عند آخرين فيحققوها هم.

بعد فترة من انقطاعي عن العمل حينها استطعت أن أنفض عن نفسي تراب تلك الذكريات و أن أكمل العمل من جديد.

****

في يوم ليس بالبارد و لا بالحار

استيقظت و توجهت للمطبخ على غير عادتي لأصنع لنفسي كوبا من الشاى

رنّ هاتفي فتناولته لأجيب المتصل.

_ السلام عليكم.

_ وعليكم السلام أستاذ يوسف معي؟

_ أجل.

_ معك أدهم.

رجعت بالذاكرة لأتذكر هل أعرف أحدا بهذا الاسم لكني لم أتذكر

فقلت: أدهم من؟

_ أدهم سعيد لا أعتقد أنك تعرفني، كنت أرجو منك تلبية دعوتنا لحضور حفل تكريم الوجوه الشابة المقام بكلية الآداب غدا إن شاء الله فى الرابعة مساء.

عندما ذكر لي اسم المكان سرى بداخلي شعور حاولت جاهدا أن أُميته، ذكريات بُعثت من مرقدها في ذهني، ذكريات رُفعت عنها الستار لتواجه عقلي الحي لتذكّره، إن الماضي المستور برداء التناسي يكشف عن نفسه في أسوأ توقيت، إنه المكان الذى فيه دبّ روح عشقي لها، رحلت هي و بقيت الأماكن لتجلدني.

حين أراها يقفز قلبي خلف جدار الصدر في فرح يملأ صدى نبضاته أذني فأنعزل عن باقي الأصوات إلا صوتها، كلما رأيتها هربت مني الكلمات وتفرقت الحروف و أنا في أمسّ الحاجة لأربع حروف فقط أنطقهم بترتيبهم (أ ح ب ك)، أنصب لهم الفخاخ ليتحرر حبي من مشابهة واو عمرو؛ يكتب و ينطق معا.

فأردفت: هذا بالطبع شيء يشرفني لكن...

_ أرجوك لا ترفض فجمهورك متعطش لرؤية ساقيه.

تنهدت ثم قررت أن أواجه بنفسي مخاوفي من ذكرى ذلك المكان.

_ سأحضر إن شاء الله.

_ شكرا جدا لك سنكون في انتظارك.

انتهت المكالمة و لكن لم تنته تلك المشاعر بداخلي تجاه هذا المكان.

تناولت كوب الشاي و شرعت في كتابة رواية جديدة.. جديدة من نوعها.

بينما أنا كذلك طرقت أمي علي الباب فاستأذنت بالدخول، فاستقبلتها بابتسامة هادئة.

_ طبعا ادخلى يا أمي.

_ ظننتك مشغولا.

_ أنا فعلا كذلك لكن لأجلك أتفرغ من أى شيء.

_ كنت أريدك في شيء ما .

_ و ما هو؟

_ ألم يحن أن تتزوج بعد؟

_ أتزوج؟! أتريدين حقا أن أتزوج؟

استغربت كثيرا من طلبها لطالما كانت تخبرني بأني لست آهلا لذلك وأني قد تسرعت في خطبتي لـ ليلى، كان موقفي من نصائح الكبار و توجيهاتهم كمن لجأ لجبل العشق ظنا منه أنه سيعصمه من طوفان آلامه الذي أغرق الكثيرين و لا عاصم منه إلا بأمر الله، ظننت نفسي دائما على صواب و الكون بأكمله على خطأ، أملك الحقيقة حصريا عندي، كنت أحتاج فعلا لاحتواء.. لتوجيه.. لم يشعر بي أحد.. لا يشعر بلهيب الحب الذي أحرق فؤادي إلا أنا.

قلبي فقط هو من يعرف معنى الحب الذي معه يعطيني القوة لمواجهة عالمهم.. عالم الكبار أصحاب القلوب التي لا تنبض بالحب.

ثم أردفت أمي: لا تستعجب فأنت حاليا تغيّرت بالفعل و أصبحت معتمدا على نفسك و سآمن عليك حتى بعد وفاتي.

_ لمَ تقولي ذلك يا أمي أطال الله في عمرك؟

_ أريدك أن تتزوج و أرى أحفادك بعيني هذا ما تتمناه كل أم.

_ لا أفكر في ذلك الأمر حاليا.

_ لمَ؟

_ لم يحن بعد.

_ بل حان.

_ لا أظن ذلك.

_ متى إذن؟

_ ربما قريبا.

_ أتمنى قربه فعلا و ألا تعود لسابق عهدك تُمنّي نفسك بالمستحيل.

كلام أمي كان بمثابة الصفعة على وجهي بعد أن ولّت مستدبرة إياي.

ليس العاجز من تمنى المستحيل، بل العاجز من ضيع ما كان ممكناً.

****

في يوم الحفل.

ذهبت مبكراً؛ أردت أن أواجه وحدي مخاوفي من ذلك المكان الذي تهيج فيه مشاعر آمل في وأدها.

استقبلني أدهم وعرّفني على نفسه و على باقي فريق العمل المنظم.

بدأ الحفل وانهالت علي كلمات الثناء، قدمني أدهم لهم، صعدت المنصة و بدأت الاسئلة تنهال علي و كنت أجاوبهم بثقة، ظلت الأسئلة تأخذ طابع الحديث عن الكتابة إلى أن سألتني إحدى الحاضرات سؤالاً أعتبره نابعاً مما يشغل عقلها كمثل باقي الشباب في مثل سنها الذين يتمنون أن يخوضوا تلك التجربة التي تتزين لهم دائما.. تجربة العشق.

_ هل أحببت فتاة من قبل؟ أم أنك لم تمر بتلك التجربة؟

فقلت لها في ثقة: نعم كانت لي تجربة.. كانت مخطوبتي.

فقال آخر: إذن أنت لك تجربة حب مسبقة! وتكتب رواياتك كمن لم يعشق مسبقا، فلماذا تصور للعشق ضحايا؟

فقلت مستعجبا: و هل للعشق غير الضحايا؟! لا أنكر العشق و لا تلك المشاعر بل ما أنكره هو ما نرتكبه من تنازلات بالطبع لم نُرب عليها فيضيع معها ديننا و أخلاقنا، فثورة الشباب بداخلي دفعتني لأفتح بابا كنت أحسبني عابره للسعادة لكنه كان سرابا، شهوة تُنتج بداخلنا تريد من يلقمها حظها من اللذة المزيفة.

عادت تلك الفتاة و سألتني: كيف وقعت في الحب إذن؟

صراحة تذمرت من تطفلها ذلك لكن تحاملت على نفسي.

_ ليس صدفة.. نحن من نوقع أنفسنا فيه ثم نعاني إن لم نهتد للذة الحقيقية له، أرى الفضول في عيونكم لكن رجاءً لا تطيعوه دائماً، فآلامنا ليست مادة تُعرض لأجل إمتاعكم!

خانتني عيناي، فلم أستطع كبح جماح دموعي و حاولت جاهداً ألا يلاحظها أحد ثم استأذنت، نزلت مسرعا لدورة المياه، واجهت دموعي أمام المرآة، حدثتها حديثا خفيا: لماذا كلما أحسست أني أقوى من تلك التجربة ولن تستمر معي لتكسرني تخر قواي و تتفلت أدمعي و ينفطر لها قلبي؟ أيّ عذاب ذلك الذي يسعى إليه عاقل؟! ها أنا قد عشقت فأين جنّة العُشاق؟! قد غدت الجنّة المرجوة هي العودة بالزمن حيث حياة بلا عشق.

وغادرت بدون استئذان.

****

لم أر أصدقائي القدامى منذ فترة.

هاتفني أحمد ليخبرني بأنه يريدني لنتسعيد ذكريات الجامعة، كنا ثلاثة أنا و أحمد و ياسين، كم افتقدت تلك الصحبة، تسامرنا كلنا و ضحكنا كثيرا، لكن ضحكاتي كانت سرعان ما تتلاشى عند ارتفاع نداء جراح قلبي.

انطلقنا بسيارة أحمد نجول في الشوارع.

استعرت من أحمد سيارته و بقيت أنا و يــاسين، قررنا أن نقضي بعض الوقت معا على النيل، كنت في حاجة ماسة لأفضفض ليـاسين كثيراً فهو من يسع صدره لي دائما.

بدأ يــاسين حديثه بعدما لاحظ علي بعض الشرود.

_ ماذا بك يا يوسف؟

_ لا أخفيك سرا، يرهقني شيء ما.

_ شيئ يخص لـيلــى.

_ افترقنا.

بدا على وجهه التعاطف معي و حزن لذلك ولم ينطق ثم أردفت:

_ أتعلم يا صديقي، لا يحل للقلب الحب ما دام المال لا يعرف لجيبه مسلكا، جعلوا المال يا صديقي شرطاً أساسياً لتكتمل دائرة الحب السرمدية، المال ثم المال هو قاطع الطريق الذي منعني.

_ لست وحدك من يعاني.

_ لكني وحدي من أحببت ليلى.

خنقتني العبرة مع تناثر عبراتي من عيني تباعا، ثم قال بحذر بالغ: كيف حدث ذلك؟

_ والدتها، نجحت في مرادها وأثبتت لليلى حجتها الواهية في عدم تقبلها إياي، كنت أعلم أن إصرار ليلى و تمسكها بي متعلق بخيط أوهن من بيت العنكبوت.

_ تقصد من ؟ والدها ؟

_ و من أوهن الناس بقصتنا إلا هو؟! عملت كل شيء و تحريت الحلال في سبيل تحقيق المال لأكون جديرا بانتزاع ليلى من أنياب أمها، لكن بكبرياء لم أتحمل الإهانة و سوء المعاملة في سبيل تعلم مهنة و إنه لعمر طويل و صبر أم ليلى أقصر مما بين شهيقك و زفيرك، لامتني ليلى كثيراً و أوصتني بالتحمل لكن حماقتي أفقدتني الوعي بأن مشقة التحمل أهون بكثير من مجرد تخيل العيش بدونها فكيف إذا تحقق؟ و قد تحقق.

_ يا رجل إن كان على المال فهناك كثير من الشباب لا يملك مالاً ليغلف شهادته الجامعية! أخبرني ما مصدر رزقك؟ لا تقل لي الأدب.

_ بالطبع لا، أعمل حاليا بالبرمجة.

_ كيف حققت أمها مرداها؟

_ ليلى استماتت لتحفظ صورتي أمام أهلها و لامتني كثيرا و لمّحت لي بأنها على وشك أن تفلت من يدي لكني ظننتها تهوّل تلك المهوّلة.. لم أعلم بأن الأيام العاصفة في طريقها لتكشف عن رعدها و برقها، بعد أيام تلقيت اتصالاً من والدتها تطلب مقابلتي، صراحة لم أكن متفائلاً بتلك المقابلة، تأتي مثل تلك المقابلات بما لا تشتهيه قلوب المحبين.. حدث ما كنت أخشاه، رأيتها تخرج من سيارة فارهة لم أميّز سائقها وجدتها تتجه نحوي و في يدها خاتم ليلى معلنة فسخ الخطوبة ملقية بي في غياهب الفراق و الألم، أردت أن أعرف منها السبب لكنها لم تنطق بكلمة و ابتسامة المنتصر تعلو وجهها، أشارت للسيارة لتخبرني بأنها تخص ابن أختها الغني الذي لطالما حكت لي ليلى عنه وعن مضايقاته لها.. ضلّت شمسي الشرق فاتجهت لتدفئ غيري بحبها و حنانها و نظراتها التي ترد إليّ روحي، ثم قالت إنها ليست على استعداد أن تلقي بابنتها الوحيدة لتلقى مصيرها مع فاشل مثلي بلا هدف ولا وجهة ولا مال! سألتها عن علم ليلى بذلك و تعجبت من ثقتها في الرد.

اختنق صوتي من الدمع و شعرت بغصة تؤلم حلقي و تمنع الهواء عني بالكاد كنت أتنفس.

_ كل كلمة نطقتها كانت تضغط على ذلك الجرح التي أحدثته في، أقرّت بمعرفة ليلى بذلك ثم تركتني دون أن تعبأ بالقنبلة التى نزعت صمام أمانها تاركة دماراً شاملاً في نفسي ناثراً خلفه غبار الأسى، استقلت السيارة و ظللت أتتبع السيارة حتى ابتلعها الظلام ودموعي لم تجف من عيني ليلتها، ظللت ناظراً إلى سقف الغرفة لساعات دون أن أتفوّه بأي حرف، أمي كانت تلاحظ علي أني لا أنام تقريبا فالهالات حول عينيّ كانت تشي بذلك، كنت أتكور مثل القطة و الآهات رفيقتي، كما كنت أميل لارتداء نظارة سوداء لأُخفي تورم جفوني، استقليت قطار الذكريات ليلقي بي في تلك المحطات التي كانت تجمعني بها، أخذت أتذكر كيف كانت تهوّن علي فقد والدي، فمن سيهوّن علي فقدها الآن؟! فكان ما حدث هو نعي سعادتي بعدها، بأمر من قلبي الذي فقد حبيبه تمردت عليّ مشاعر السعادة.

_ أنت لا تعلم حقيقة ما حدث يا يوسف.

-هل ما قاله ياسين يجعلني أبحث لليلى عن مبرر؟!-

_ بعدها علمت بخبر خطوبتها فلم أكلف نفسي عناء الاستفسار عن هوية من تقدم لخطبتها، كان الخبر كافياً ليعطل جميع حواسي عن العمل، لقد أُغتيل قلبي فلم يعد ينبض.

ارتميت في حضن يــاسين أبكي ثم قال مطيباً لى: لك الله يا صديقي، لكن إذا أردت نصيحتي فلتتناس و لا تنقب في ماضيك عن جراحات تستلذ الذكريات بجلدك بسياطها، ابدأ حياة جديدة بلا مشاكل و ركّز جيدا في مستقبلك و ليكن جُلّ اهتمامك أن تثبت نفسك للجميع فأنت فعلا تستحق التقدير يا صديقى.

-تحدثت في نفسي أي حياة جديدة يقصدها يــاسين؟! لقد انتهت تلك اللفظة من قاموسي بعدها، ارتحت كثيرا عندما فضفضت لـ يــاسين-

دخلت غرفتي فوقعت عيني على المصحف الذي تراكم عليه ذرات الغبار، لم أكلف نفسي أن أعطيه دقائق حصرية من وقتي فتناولته فظللت أقلب نظري بين صفحاته حتى نمت ليلتي تلك في راحة نسبية مما أعانيه، لطالما أبدلت تلك الراحة بالأغاني بحثاً عن ضالتي المنشودة فيها و ما زادت مستمعيها إلا خبالا فكانت بمثابة الوقود للنيران.

كان يتحتم علي أن أجلس مع نفسي جلسة محاسبة قد آن أوان أن أحطم ذلك الصنم، غطى دوّي قلبي على نداء عقلي طوال تلك الفترة، من بعدها خُطفت في رحلة الألم اللانهائية إلى قاعها و الصرخات المتسربة من جحيمه لروحي التي تودع الراحة، لا صوت و لا همس في حضرة القلب إذا عشق، إذا عشق تنازل عن عرشه و نفى العقل خارج مملكته و يصبح الدخيل قابضا عليه يعتصره بكل ما أوتي من قوة.

تساءلت كثيراً ما الذى أوصلني لهذه الحال؟! حالة فعلا لها يُرثى، أفنيت قصتنا في سجلات البشر و احترقت بينهم لتصبح رماد ذكرى؟!

ذكرى سوف أتذكرها و أتألم.. أتذكرها و أبتسم.. أتذكرها و أكتب شعراً.. أتذكرها و أزداد حكمة وعقلا ، في تلك الجلسة كان لعقلي الغلبة في صراعه غير المتكافئ مع قلبي الذي يشتهي المستحيل، أيقنت أن بغيابها ضعف قلبي في صراعه مع العقل.

****

تغيّرت حياتي.

أصبحت مشغولاً في مجال الأدب لأحقق ذاتي فيه، لم يعد للماضي ثغر يهاجمني من خلاله ليؤخرني عما أريد تحقيقه، أصبحت منظماً لحياتي بأكملها و رأيت ثمرة ذلك التغيير و شعرت بأن قيمة المرء بما يُقدّمه، كل ليلة أُمسي بحلم جديد أوّد تحقيقه، نحن كشباب نرغب كثيراً في السير عكس التيار و لا نتعلم إلا بعد أن يذيقنا الفضول حنظل التجربة!

الفراغ ضيف ثقيل في جدول يومياتي يجلب معه ضيوفاً ثقالاً مثله كذكريات سيئة و تجارب فاشلة لذا كان لزاماً على مهامي في صوت واحد تنادي "هذا فراغ ورائي تعال فاقتله"

انهالت علي رسائل مستفسرين عن بعض المشاكل العاطفية بل كانت بعض تلك الرسائل من المقربين إلي، أصبحت منقذاً للعشاق بعدما كنت غريقا مثلهم.

ذهبت إلى المصيف، جسلت أمام البحر أتأمل السماء الصافية و التقائها من بعيد مع مياه البحر و أنا أكتب أخر سطور روايتي التي كنت أعمل عليها و أضع بعض اللمسات الأخيرة للنشر، تذيلت بـ: "أنا الذي يلجأ إليه الآخرون لحل مشاكلهم العاطفية لكنهم مساكين، لا يدرون أن صاحبهم هذا عاشق و في تلك الصفحات أصبح تحت المجهر."

قدمتها للدار و تم نشرها، لم يعلم أحد أن بطل تلك الرواية هو أنا إلا من كان يعرفني حقاً.

أحمد استغرب كل تلك الاحداث التى مررت بها فكان لا يعلم عنها شيئاً.

و راسلني ياسين بعدها: أتمنى أن تكون في حال أفضل.

على غير المتوقع فاقت تلك الرواية أخواتها، لعلي كنت صادقاً لأبعد حد لتنتشر هكذا.

في حفل توقيع تلك الرواية لم أكلف نفسي عناء التحضير و توقع الأسئلة، كانت تلك روايتي و أنا بطلها، فلكل رواية وجه آخر لا يعلمه إلا كاتبها، فمحبوبة الكاتب حية بين يديه يطالعها متى شاء.

اجتمع الحضور و جلست أمامهم في ثقة متناهية إلى أن سألتني إحداهن: لماذا وصل بك الحال لتلك الدرجة ؟

انتبهت لها و نظرت لها بسرعة؛ لا يسأل أحد هذا السؤال إلا وهو يعرفني!

ثم تداركت نفسها قائلة: أقصد يوسف الذي في الرواية.

عندما تجلت لي ملامح وجهها كنت كمن صُعق حقا، احتلني خليط من المشاعر المتضادة، عجزت عن النطق لبرهة.

لقد تسمرت في مكاني عندما اجتمع الصوت مع الصورة ليعلنوها مدوّية.. إنها ليلى.

كانت نظرات الحضور تنتقل بيني و بينها، لكني لم آبه بهم و لم أكن في حال أقل من حال السكران حينها.

أردت أن أفصح عما بداخلي لها، لكن لم يكن هذا الوقت ولا المكان المناسبين.

فقررت أن أبوح بما أشعر به و أعلم انه لن يفهمني غيرها!

_ كيف لكائن مثل ليلى أن يعشقه أحد و يكمل حياته بدونها؟!
لم يكن في يوم يتصور أن تضيع من بين يديه، بعدما ظنها زمالة بريئة لم يكن يتوقع أن تُزال تلك الحواجز و تتطور علاقته بها و تُخلق الألفة بينهما فينمو معها تعلق قلبه بها ليصبح الفراق مستحيلاً، فالرجل منّا يحتاج دقيقة ليعشق امرأة و يحتاج عصوراً لينساها!

-آه لو تعلمين ما بي، لو كان الفضول رجلاً لقتلته يا ليلى لأنه هو الذى دفعني لذلك فلا خير في لذة تتبعها ألم دائم، ذلك الفضول الذي جعلني أتعلق بك فأصبحت على جمرات الشوك و نيران الحب وخيالات الشهوة أتقلب، فلم أدر ليلي من نهاري لغيابك عني-

و وجدتني تحولت إلى صيغة المتكلم: أتمنى ألو عادت الشمس لتنير حياتي من جديد و تطرد ليلا مظلما ظل عاكفا بداخلى يتلذذ بتخبطي في ظلمات الهجر ، لقد عشت بدونك في صحراء يكسوها جليد الذكريات التى صورتها ذاكرتي معك ، فالذاكرة أفضل مصور يمكن أن تقابليه في حياتك.

لم أدر بنفسى إلا و أنا أتجهه نحوها و هي مضطربة تصطنع الانشغال لترحل و لم أكن لأبالي بالحضور.

فضوء شمسي قد غلب على جميع الأنوار من حولي بعد غياب فلم أر إلا هو.

رحلت وهي متوترة فتتبعتها و تركت الحفل بدون استئذان

ناديتها: ليلى.. ليلى انتظري.

توقفت ثم وقفتُ أمامها مباشرة فلم تنجح في إخفاء دموعها

_ ليلى لمَ رحلت؟ و لمَ جئت؟ أتريدين أن تذبحيني مجدداً إذا كان الأمر كذلك فلتريحي ذبيحتك و ليكن الفراق الحتمى بدون ألم، أما سمعت إذا قتلتم فأحسنوا القتلة؟!

_ فلقد كنت ذبيحة مثلك و رأيت تلك الشفرة التي ذبحتنا بها أمي.

_ أكنت حاضرة؟! كيف؟

_ أنا كنت من يقود السيارة حينما تسامت آخر أرض صلبة في علاقتنا.

صُعقت من علمي بذلك كمن اختارته الصاعقة عمن دونه في الأرض.

_ أطابت نفسك أن تشاهدي مصرعي بعينيك و لم تحركي ساكنا!

_ أنت من خذلتني و لم تعطني سبباً واحداً لأدافع به عنك.

_ ألم يكن حبي لكي كافيا؟!

_ كلانا يا يوسف كان يبرز أفضل ما لديه، كلانا يرى في الآخر الجانب الحسن فقط، الحب لا يصنع المعجزات كما نظن يا يوسف.

_ لكنه جعل من يوسف شخصا آخر.

_ لا تخدع نفسك يا يوسف فأنت لم تنجح إلا بعد أن افترقنا كأن حبنا كان عائقك!

_ من الممكن أن يتغير الوضع.

_ يستحيل يا يوسف فأنا متزوجة الآن.

تلك الكلمة حكمت عليّ بالإعدام، انفعلت في حديثي معها: ما الذى جاء بك إذن؟

_ جئت لأخلصك من معاناتك.

_ كيف إذن؟ و بمجيئك بعثت ذلك الحب من مرقده!

_ حان الوقت ليُقبر للأبد.

رحلت.. اعتقدت أني سأظل في حالي تلك حتى أموت أو يطرق الخراف بابي، و مرت الأيام و تثبتت لي حقيقة ما قالته "الحب لا يصنع المعجزات"

عدت إلى مكان الحفل، اندهش الجميع بلا شك مما حدث ثم وقفت ممسكا بمكبر الصوت: أراكم مندهشين ولكم الحق فى ذلك، نعم أنا ذلك العاشق الذي عايشتم معاناته ، رأيت أن الواقع يغني عن إعمال الخيال في الروايات، ها أنتم قد عاينتم ذلك، فما أنا فيه الآن جراء اتخاذ المسار الخاطئ للتعبير عما بداخلي، الدين و الأخلاق لا يدفعان كضريبة للذة لم تحل بعد للمحبين، لا تكتموا مشاعركم و تكبتوها، ذلك من الحماقة و لكن اتخذوا المسار الصحيح للتعبير عنها، المسار الذي جعل النبي عندما سُئل من أحب الناس إليه قال "عائشة"، لن تستطيعوا معرفة ما بالعاشق من ألم لو لم تختلسوا بعض النظرات عليه تحت مجهر، أستأذنكم في الرحيل.

رحلت و في نفسي كنت مندهشا من جرأتي على قول ما قلته!

****

في فجر اليوم التالى،

بعدما صليت الفجر في المسجد قررت أن أمشي قليلا على شاطئ النيل أستنشق ذلك الهواء الذي يكمن سر نقاوته في خلوه من أنفاس المنافقين.

استقليت قطار الذكريات لأقف عند كل محطة و أسترجع كل لحظة مرت في حياتي لأحصّل منها خبرة تفيدني مستقبلاً تدفعني للأمام، مرت الأيام تلو الأيام، ومن رواية لرواية، ومن حفل توقيع لحفل آخر.

المُلفت في كل حفلات توقيعي بعدها وجود إحدى المنتقبات و حرصها على حضور تلك الحفلات و إن تكررت! قررت أن أبحث عن هويتها، فتلك العيون لا أخطئها أبداً، الغريب حقاً أنها كانت أول الحاضرين فى كل حفل و أول المنصرفين أيضاً! فلا أستطيع معرفة من تكون؟ أو بمعنى أدق لم أتحقق من ظني، طلبت من إحدى الزميلات معي في الدار أن تحضر حفلاً و عندما تأتي تلك المنتقبة تتعرف عليها أو على الأقل تؤخرها حتى ألتقي بها.

في المرة الأولى لم تأت، في الثانية أتت.

أصبحت أقيم حفلات توقيع لأجل أن تجمعني بها فقط، أصبحت مشغولاً بها حقاً، اصطنعت زميلتي الحيل لتتعرف عليها، و بالفعل أتتني باسمها، لم تكن مفاجأة بالنسبة لي.

اتفقت معها أن تذهب بها إلى مكان قريب ليتناولوا أي شيء و أنا سأتبعهما دون علم الأخرى بذلك.

ذهبت في عجلة من أمري لتغادر زميلتي مصطنعة الذهاب لدورة المياة و توجهت أنا نحوها.

_ ليلى.

نظرت إلي في فزع و حاولت الرحيل لكني أبيت إلا أن تقف و أنكرت أنها ليلى.

_ أعلم أنك ليلى حقا فلماذا تُنكرين؟! و لمَ تنتقبين مني؟!

_ أريد الرحيل.

_ لماذا كذبتي علي بشأن أنك متزوجة؟

_ أنا فعلا متزوجة.

_ لا تكذبي عليّ مجددا.

_ أنت لا تفهم.

_ حسنا أريد أن أفهم إذن.

_ تفهم ماذا؟! لم يعد هناك شيء يربطنا ببعض.

_ قد يتغير الوضع.

_ مستحيل.

_ لمَ ؟! فأنا لن أسمح لك بالرحيل قبل أن أفهم كل شيء.

هي ليلى.. لا تستطيع إخفاء دموعها.

أغار من ذرات الهواء التى تعانق ملامح وجهها من وراء ذلك الحجاب.

جلست و طلبت لها عصير ليمون.

_ لم أكن أقل منك معاناة يا يوسف فلقد كنت كالذبيحة التي نسى الجزار السكين في رقبتها و رحل، لم أتخيل يوماً أن الفراق سيكون مصيرنا، قاتلت حتى آخر رمق في علاقتنا لكنك خذلتني و بخذلانك كنت أنت الجزار!

_ أعدك أني لن أخذلك مجدداً.

_ لقد فات الأوان يا يوسف.

_ لا لم يفت بعد.

_ كنت أقرأ رواياتك جميعها و أشعر بأنك توجه لي رسالة بين دفتيها و كنت أتمنى أن أصيح و أخبرك بما في داخلي لكن.. ذلك لن يفيد شيئاً بل ستزيد معاناتي بمعاناتك.

-علمت حينها أن شمسي لم تعتزل مهنتها فلقد كان يفصلها عني أستار كثيفة-

_ معاناتي؟! كنت سترحميني من تلك المعاناة لو كنت أفصحت عما بداخلك، فبدونك انزلقت بسرعة إلى فجوة مظلمة.. ظلام لا يمكن أن يخالطه نور.. فيه قد ذبلت مشاعري و أحاسيسي.

.

رشَفَت رشفة من العصير ثم نظرت في عيني نظرة أحسستها نظرة وداع لا أعلم لمَ؟

_ كيف حال خطيبك الآن؟

_ أنا لست مخطوبة.

_ ؟!

_ أريد أن أرحل أنا مجهدة قليلاً.

_ اشرحي لي الأمر ماذا حدث و سأوصلك.

_ لا سأرحل الآن..

تركتني و رحلت و استقلت سيارة أجرة، فتتبعتها حتى توقفت عند إحدى المستشفيات و دخلتها ثم دخلت وراءها، ظننتها أتت لزيارة أحد ما هنا لكن رأيت أمها فتراجعت قليلاً حتى لا تراني، فحرام أن يُعذّب المقتول برؤية قاتله و هو مكتوف الأيدي.

راقبتها من بعيد فرأيتها دخلت إحدى الغرف و أمها تتبعها و هي تقول: لمَ تجهدين نفسك يا ابنتي؟ حرام عليك ما تفعلينه بنفسك.

صراحة لم أفهم ماذا تقصد؟ لتغزوا علامات الاستفهام ملامحي حينها.

توجهت لإحدى الممرضات لأسأل عن مريض تلك الغرفة لتصدمني بأنها ليلى.

علمت حينها لمَ كانت تخفي مشاعرها نحوي ولم تبدها لي بعد أن افترقنا.

انتظرت حتى خرجت أمها من الغرفة و انتهزت فرصة غيابها و دخلت.

_ ليلى.

نظرت لي في استغراب: يوسف!

_ نعم يوسف، لمَ كنت تخفين عني حقيقة مرضك؟ أظننت أني سأتركك؟

-كيف لي أن أتركها بإرادتي؟ يا تُرى أهناك عاقل يستغني عن الهواء الذي هو مادة حياته؟-

_ يوسف لا تظلمني فأنا أيام و سوف أترك هذه الدنيا أما أنت فلا زال العمر أمامك فلا تعلق نفسك ولا تُمنيها بي.

_ لمَ تقولين ذلك؟ أنت مخطئة.

بينما نحن كذلك إذ دخلت أمها علينا وهى منكسرة لتتفاجئ بي.

دعتني بصوت مبحوح أعياه البكاء بالجلوس ثم اعتذرت و أردفت: سامحني يا يوسف فلقد ظلمتك يا بُنىّ كانت ليلى محقة عندما قالت أنك تحبها أكثر من أي شخص آخر.

أخذتني للخارج لكي ترتاح ليلى قبل موعد أخذ عينة الدم

_ أخبريني ماذا حدث.

تابعت و الأسف باد على ملامح وجهها حتى إنها لم تكن تنظر إلي: تمت خطبتها لابن أختي.. بعدها بأربعة شهور كانت إحدى صاحباتها مريضة تحتاج لنقل دم و تبرعت ليلى و عند تبرعها اكتشفوا أن عندها ذلك المرض الخبيث.

تصلبت في مكاني، هل سينتزعها مني ذلك المرض؟

تابعت و أنا منشغل بما أهاب أن ألقاه: و ماذا بعد؟

_ أجرت التحاليل اللازمة و ذهبنا بها للطبيب و أخبرنا أنها كانت مصابة به من فترة كبيرة و هي لم تكن تدري بذلك.. و سارعنا بعلاجها و ما إن علم بذلك خطيبها حتى.. حتى تركها، ومنذ أن علمت بروايتك التي أفردتها لكما حتى قررت أن ترحمك من تلك الويلات وتفقد الأمل نهائياً فيها حتى تُكمل حياتك بعدها.

_ ترحمني؟! و من سيرحمها؟ أتُرحم عندما تأتي و تراني و أنا لا أراها؟

_ هذه هى ابنتي.. عنيدة، الأطباء حذّروها من مغادرة المستشفى و لكنها أبت إلا أن تراك.

جلست أنتظر حتى انتهاء الجلسة و دخلت غرفتها و والدتها.

سحبت مقعداً لأجلس بجوارها وهي على الفراش و بدأت الحوار معها: لقد علمت كل شيء.

_ و ماذا بعد أن عرفت؟ لن أسمح لك بتعذيب نفسك من أجلي مرة أخرى فأنا مريضة حكم عليها المرض بالإعدام، أبيت إلا أن أنتهز كل فرصة قبل موتي لتعانق مقلتي فيها ملامح وجهك و كل مرة كنت أُمنّي نفسي بأنها آخر مرة.

_ كيف تخليت عني يا ليلي؟

كان جوابها بلغة الدموع التي تفصح عن أشياء يعجز اللسان عن ترجمتها.

حلّ الصمت المريب ثالثنا ثم خرجت عن صمتها.

_ يوسف، لقد راهنت عليك كثيراً و في كل مرة كنت تخيب ظني بك، أخبرتك عدة مرات بأن تبحث عن عمل و تستمر فيه، و بأن نهاية الكون ليست في عدم كونك الآن معيداً بالجامعة كما كنت تحلم و كان جوابك اللامبالاة في كل مرة، ماذا كنت تنتظر؟ معجزة؟ أم أن نفترق حتى تنجح في شيء في حياتك؟ أنت لم تمدني بشيء أدافع به عنك، حاولت بكل السبل إقناع أهلي بجدوى استمرار الخطوبة حتى تهدمت كل السدود التى تفصلني عن تفضيلي لقطع الأمل.

كانت كلماتها رصاصات لوم تستهدف قلبي دون رحمة و بلا هوادة.

القلب على الفطرة إن لم يدفع المار بين يديه وهو قائم في المحراب عشق، حان اتخاذ القرار الصحيح.

_ ليلى.. لن أسمح أن تضيعي من يدي بعد ذلك و لن أعصي الله فيك مجدداً لست على استعداد لفراقك مجدداً لذا سأعقد عليك اليوم.

_ أأنت مجنون؟ لا لا لست موافقة.

_ ليس بموافقتك لم يعد بيدك من الأمر شيء.

_ قلت لا يعني لا.

دخل علينا والدها ثم توجهت إليه قائلا: عمي أريدك على انفراد.

_ تفضل يا بني.

خرجنا من الغرفة باتجاه الاستراحة و جلسنا.

_ عمي أريد أن أعقد على ليلى.

_ لكن يا بني أنت تعلم ما بها.. أأنت مدرك ما أنت قادم عليه؟

_ نعم أُدرك ذلك جيدا.

_ سامحنا يا بني لقد ظلمناك بإبعادكما عن بعض.

قلت فى نفسي: لقد ألقيت بي في نار شوق لو مرّت طيور المحبين من فوقها لاحترقت لكن قدّر الله و ما شاء فعل.

_ قدّر الله و ما شاء فعل يا عمي.

أخبرت أمي و جاءت مسرعة إلى المشفى.

كنت أظنها ستعارضني لكن وجدتها متفهمة الأمر و هذا جعلني أبلغ من السعادة ذروتها.

عقدت عليها.. كانت خطوة مجنونة مني لكنها أرحتني كثيراً، إذا لم يُقدّر الله لنا الاجتماع في الدنيا فأتمنى أن يجمعني بها في الأخرة في جنة الخلد و هي زوجتي.

أقمنا حفلاً صغيراً بالمستشفى، دعوت يــاسين و أحمد للحضور بمرافقة المأذون.

انفرد بي يــاسين متبسما و قال: أيها العاشق أراك ارتحت الآن.

قابلته بابتسامة قد قاربت ملامحي نسيانها بعد غياب.

_ لم أكن أجهل مشكلتي حتى تذكرني بها، وكيف لي ألا أرتاح؟! لم يكن سهلا علي أن أنساها أبداً أو أن أُكمل حياتي بدونها، لقد انزلقت في حفرة العشق و تلذذت بالانزلاق أن أترك قلبي في قبضة جاذبيتها و أكف عن المقاومة برضا تام، ومن يغامر و يُمنّ نفسه بالعشق و يمر بما مررت به فإنه يلق ترحيبا من نوع خاص لا يفكر في تثنية فعلته.

_ لقد تغيّرت كثيراً يا صديقى، أرى ذلك في عينيك.

_ لم تعد غايتي أن أظفر بها في الدنيا فتفنى معها قصتنا، الأمر أكبر من ذلك بكثير.

-فذلك هو الميثاق الغليظ ذاته الذي جعله الله بين الزوجين، كان علي أن أعبر محيطات الفراق و ألم الذكريات لأتيقن ذلك فكان لزاماً علي قبل أن أُبحر أن أتحرر من أي تعلق شهواني فلربما لو لم نفترق لكنت زاهداً فيها بعدما أُطفئ ظمأ تلك الغرائز، كنت أظنني قادراً على إبقائها في بستاني أستمتع برحيقها متى شئت لكن جاء من قطفها و رحل فقدمت ملكة النحل استقالتها عن إمدادى بعسل تطيب به حياتي، حينها كان من السهل أن ندّعي الحب.

_ فعلا.. لم ير للمتحابين إلا النكاح كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

_ أتعلم كنت أظن أني أحمل مظلة تقيني حر الشمس و لكني تفاجأت بأني أحمل الشمس نفسها!

ترجلت مع ياسين و أحمد حتى باب المستشفى أودعهم.

دخلت عليها الغرفة و أهلها بالخارج مع أمي، كانت كالملكة ليلة تتوجيها، أضاء وجهها كثيراً، أمطرت حياتي مطراً غسلت فيه سمائى لتعيد لها زرقتها و لحياتي شمسها.

لم أكن مخطئاً عندما أحببتها لطالما جذبني إليها شيء لا أدري ماهيته يجعلني أنظر إليها أعماراً ولا أملّ.

كان ذلك هو الفصل الممتع في مسرحيتي التي طالما انتظرت بكل شوق أن تُغلق أستارها.

اقتربت منها و هي في قمة خجلها مبتسمة و قالت: بنورك أضاء من المستشفى كل شيء.

_ حقا؟! لكن أنّى لنور القمر في حضرة الشمس أن يضيء؟

ابتسمت ابتسامة أضاءت من حياتي كل شيء.

_ إن شاء الله سأُعلن عن عقد قراننا بعد أسبوع حتى أتهيأ للأمر.

_ لماذا قررت أن ترتبط بمريضة مثلي؟!

_ لأني لا أستطيع أن أتخيل مجرد التخيل أنك لن تكوني لي في الآخرة، أما يكفي ما مضى؟

_ الآن لا أريد من الدنيا أي شيء تكفيني رؤيتك.

_ اللهم صيباً نافعاً، أمطريني بكلامك المعسول و أحيي مشاعري بعد موتها، أرأيت القمر؟ شاهد على كثير من قصص العشق و لكنه سيخلد عشقي لك و لن تفنى ذكرانا و تصبح رمادا لأن الشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر.

توردت وجنتاها في خجل، لكم هو جميل حياء العذراء في خدرها!

دخلت علينا أمها فتبادر في ذهني دعاء اللهم حوالينا لا علينا ولم أنطق به حتى انصرفت على عجالة، داعبت ليلى قليلا ثم تركتها من ليلتها لترتاح.

بضع ساعات معها كانت كفيلة لمحو ليال أذاقني فيها مر الفراق مر كأسه.

ليلتها كنت أُريد أن أُزيح ذلك الستار الثقيل الذي أسدل على الكون لأدخل مجددا، فأنا لم أعد أطيقه بدونها.

جئتها أسفل المستشفى فجراً لأهاتفها فأنا لن أستطيع أن تمر دقيقة وهى بعيدة عني أو لا أسمع صوتها بعد الآن.

فطالعتني من النافذة.

_ أصليت الفجر؟

_ نعم و أنت؟

_ الحمد لله صليت، كيف حالك الآن؟

_ يكفي أني أسمع صوتك فهذا يجعلني في أحسن حال.

_ حسنا ها قد اقترب الشروق سأتركك تعودين إلى خدرك ألا ترين النجوم تتوارى خجلا من بهائك؟

_ هل سأراك أم ستترك الشوق يجلدني؟

_ سأتركه يجلدك.

_ سأهون عليك؟

_ قطعاً لا، أنت الحب يا ليلى فكيف يدّعي الناس الحب؟

_ سأنتظرك.

_ إن شاء الله.

رحلت و أنا في قمة سعادتي كيف لا؟ و أنا امتلكت الدنيا بحذافيرها.

فالحب جنّة، عندما طرقت بابها و أدخلني قلبي إياها لم أمتثل لأوامر الله ليكون طاهراً فطردت كإبليس لمّا أبى السجود، فالصلاة والحب بدون طهارة كلاهما باطل!

فالحمد لله الذى جمعني بها بعد الفراق.

في الظهيرة بعدما أنجزت بعض المهام قررت أن أتناول الغداء معها.

_ سنتناول الغداء معاً اليوم ما رأيك؟

_ موافقة.. لكن ستأكل أكل المرضى؟

_ نعم.. هيا فالجوع يمزقني و الرائحة تثير جنون أحشائي ستأكلين هذا الطعام كله هيا لتسبقيني.

بينما نحن نأكل التقت عيني في مرمى عيونها و توقف الزمن للحظات كأني لم أرها من قبل، ازدادت حسناً و جمالاً و تفتحاً، هذا حال الورد في فصل الربيع، اقتربت من جبينها أقبّله، كانت دموعي أسبق في النزول.

لم ينتبني أي شعور بالذنب عندما عانقت يدي يدها و لا عندما أمزح معها أو أطعمها بيدي كما كنت أتجرأ على ذلك سابقاً دون وجود أى رابط يُحلّ لي ذلك.

أحضرت لها الحلوى التي تحبها حتى إنني طلبت أن أتقاسمها معها إلا أنها مازحتني بالرفض! كطفلة لا تريد أن تفرط في لعبتها الأثيرة.

كنت أرى في عينيها سعادة مشوبة بألم.

كنت أتغاضى في قرارة نفسى عن هذا الألم خشية أن يُفسد علي تلك اللحظات أو يعكر صفو تلك المشاهد الاخيرة التي تجمعني بها في الدنيا.

كنت حريصاً على إضحاكها، على الرغم من أن الضحك ما هو إلا مسكن مؤقت للآلام و الهموم و ما يلبث أن ينتهي حتى تهاجم الآلام بضراوة.

أسوأ ما فى الفراق هو إدراكنا أننا لن نفلت منه يوماً.

أعلم يقينا أن تلك اللحظات كانت الأخيرة في حياتي ليس حياتها هي بعدما صارحني الطبيب بعدم استجابة جسدها للعلاج، كنت أرى في عينيها الاستعداد التام للتخلي عما بقى من حياتها عن طيب خاطر لتتخلص من آلامها لولا وجودي معها.

كنت كالسجين الذي ينتظر حكم الإعدام في أي وقت.. فهو آت لا محالة.

حياتي معها كزوجة لي لن تدوم سوى أيام قليلة وبعدها سترحل، أي كنت أرمل مع وقف التنفيذ .

****

في اليوم التالي تعبت تعباً شديداً.

فاضت روحها إلى بارئها، الموت لا يفرق بين كبير أو صغير و لا بين محب له أو كاره.

أغمضت عينى في ألم سائلاً الله الصبر، خرجت أجأر إلى الله.. يا رب لا طاقة لي بفراقها.

فهذا قدر الله، أطعت الله فيها و رحلت عني، تاركة بقايا يوسف، يوسف الذي أطبق عليه خريف حياته ليزيل عنه مشاعره.

فدعوت الله ألا يحرمني من الاجتماع بها في الجنة، كأن عقد القران هذا بمثابة الوعد عند الله بأنها لي في الآخرة عوضاً عن حرماني إياها في الدنيا.

احتسبت ذلك عند الله و أخذ الأهل و الأقارب و الأصدقاء بمواساتي و تعزيتي.

لم يفجع أحد بموتها مثلي و لو كانت حية لقالت صدقت.

لكن كان عزائي الوحيد هو أنها أصبحت زوجتي.. زوجتي أمام الله و الأهل و الناس أجمعين.

تمت بحمد الله